تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

« بنات » للأستاذ أحمد الصاوى محمد :

كتاب يطرق أبواب الشعور فى النفس الإنسانية طرقاً عنيفاً فى كل فصل من فصوله قصة ، وفى كل قصة قلب ، وفى كل قلب عاطفة . ويقف المؤلف من وراء هذا كله ليلهب القلب الذى يخفق ، وليؤجج العاطفة التى تحرق ، وليقدم من صور الحياة نماذج فيها من زهر الشرق ، وفيها من عطر الغرب ، وفيها الفن الذى يصب الزهر والعطر فى قارورة الوجدان !

فى هذا الكتاب فتاة ظلمها الصاوى كل الظلم حين لخص قصتها الرائعة فى ثلاثين صفحة ؛ فتاة ليست ككل الفتيات ، لأن مبدع شخصيتها كاتب ليس ككل الكتاب !

هذا الكاتب الفرنسى أخفض قلمى تحية لفنه ، ولا تصفنى بالغلو إذا أحنيت رأسى إجلالا لعبقريته !

وتسألنى لماذا ظلمها الصاوى؟ فأقول لك : لأن هذه المسرحية تهز منك الأعماق وهى ملخصة فى ثلاثين صفحة ، فما بالك لو أفرد لها الصاوى كتاباً نقل فيه كل همسة نفسية من همسات الكاتب الفرنسى وكل وثبة فنية من وثبات قلمه ؟ !

مسرحية تعد فى رأى النقد نموذجاً فنياً بلغ من النضج فى كل عنصر من عناصره ما يدفع به إلى القمة من الأدب المسرحى الحديث ... الفكرة من تلك الأفكار التى لا يلتقطها من أعماق النفس إلا ملتقط خبير بمسارب الشعور الإنسانى حين يرتطم بواقع الحياة ، والحوار موهبة فذة ترقب الشخوص من مرصد الوعى المرهف لتسجل الحركة النفسية قبل الحركة الفكرية ، والصراع من هذا اللون الذى تستحيل معه الكلمات إلى متحف من متاحف العرض الفنى لصور الأهواء والنزعات ، أما طريقة التوزيع المسرحى للأدوار الرئيسية فتذكرك بطريقة الكاتب النرويجى إبسن فى مسرحيته الخالدة « The wild duck » أو البطة المتوحشة ؛ كل دور يلائم شخصيته القائمة به ملاءمة تجمع بين منطق الحياة ومنطق الفن . ويبقى بعد ذلك للكاتب الفرنسى تفرده بحرارة الصراع وعنف الوجيب فى القلب الإنسانى !

دعنى أقدم إليك هذه المسرحية الرائعة التى لخصها الصاوى تلخيصاً أميناً تحت عنوان « بنت بين أبوين » ... هى فتاة كما قلت لك ليست ككل الفتيات ؛ فتاة رقيقة الحس ، مكتملة العقل ، مشبوبة العاطفة . نشأت فى بيت من تلك البيوت التى تظلل سماءها الصافية غيوم من الحيرة والشك والضلال ؛ فأبوها رجل مغلق القلب ، مغمض العينين ، متبلد الشعور والوجدان . زوجته فى رأيه ليست زوجته ، وابنته فى وهمه ليست ابنته ... وتمضى عجلة الزمن لتطوى من حياة الأسرة المعذبة الحائرة عشرين عاماً ؛ عشرين عاماً لقيت فيها الزوجة ما لقيت من شكوك الزوج وإهماله ، ولقيت فيها الفتاة ما لقيت من خشونة الأب وإعراضه ! وتشب الفتاة عن الطوق وبين جنبيها قلب يتقلب على جمرات من الحقد على هذا الأب الذى لم يشعرها يوماً بحنان الأبوة ، وعلى تلك الأم التى حرمتها هذا الحنان فى فجر العمر وشبابه ، حين جاءت بها إلى الحياة من رجل غير الرجل ... وللأسرة صديق يتهمه الزوج بانتهاك حرمة العطر فى زهرة كان يمكن أن تملأ بيته بالأرج ، وتقف الزوجة والصديق أمام هذا الاتهام السافر موقف المظلوم من القاضى الجائر ؛ فهو إن قدم الدليل على براءته لا يجد الأذن التى تسمع ولا القلب الذى يشفع! والفتاة البائسة تجلس فى الصف الأول من صفوف النظارة لتشهد المأساة بكل خلجة من خلجات الفكر الموزع والعقل المشتت والضمير الملتاع . وينتهى الفصل الأخير بأن تغادر الفتاة المسرح الذى ملأ عينيها بالدمع وأرمض جوانحها بالعذاب ، ولكن إلى أين ؟ ... إلى هناك ، إلى البيت الآخر الذى يضم بين جدرانه رجلاً كانت تناديه أبداً يا « أبى » تناديه بها بالقلب والروح واللسان ! أ كان أبوها حقاً ذلك الرجل الذى لجأت إليه ؟ الله يشهد أنه لم يكن للعائلة غير صديق؛ صديق يحب الزوج ويجل الزوجة ويعطف على الفتاة ، ولكن الشك قد أظهره فى عينى الزوج المضلل بمظهر العاشق وفى عينى الفتاة الشقية بمظهر الأب ، وما أثقلها من كلمة كانت تلهب شعوره بسياط الأسى الدفين حين تناديه الفتاة بنداء الأبوة وهو عنه بعيد بعيد !

ويأتى يوم يتدخل فيه القدر ليرفع الغطاء عن وجه الحقيقة ، والغشاوة عن عينى الزوج ، وكما يستيقظ النائم من نومه الطويل وأحلامه المفزعة ، فقد استيقظ الزوج بعد عشرين عاماً ليطلب الصفح من الزوجة والابنة والصديق ... ويصفح الصديق من

زلته ، وتعفو الزوجة عن سقطته ، وتبقى الفتاة بحول البغض والحقد بينها وبين الصفح والمغفرة ! وهنا يبدأ الصراع النفسي العنيف الذي يرتفع بالفن المسرحي إلى الأوج ... أب يتوسل إلى ابنته أن تصفح ، وأن تعفو ، وأن تعود إليه ، أب فرغ قلبه وفرغت حياته من الحب البنوي عشرين عاماً ويريد اليوم أن يملأ فراغ القلب والحياة ، أب يئن أمام عاطفة ابنته المتحجرة أنين حيوان شبعته السهام فراح يلعق جراحه ، أب يحاول أن يقنعها بأنه أبوها وأنها ابنته ، وكلما شق طريقاً إلى القلب المغلق وقف الماضي البغيض ليعترض طريق أحلامه وأمانيه ! ... إذا قال لها إن عينيه تشبهان عينيها قالت له : أجل يا أبي ، بما ليس فيهما من حنان ! وإذا قال لها يجب أن تؤمني بطهارة الأم التي أنجبتك ، قالت له : إن من يعيش معك يا أبي لا يؤمن بأحد ! وإذا قال لها أحبي يا ابنتي ما كرهته واجتويته ونفرت منه عشرين عاماً ، أما بشكلي ورأسي ويدي وظهري قالت له : ولكن ابتساماتك يا أبي ، ونبرة صوتك ، ووقع خطاك ! وإذا قال لها ألا تحاولي يا ابنتي أن يقترب أحدنا من الآخر قالت له : إن من واجبنا يا أبي أن نحاول ! ويهتف الأب وهو يغص بلوعته : أرأيت يا ابنتي أن الكلمة الوحيدة التي وجدتها هي كلمة (الواجب) وهي كلمة ينقصها السحر ؟ ! وتجيبه الفتاة وهي تشرق بالدمع : آه لو أمكننا ! ويهمس الأب من أعماقه : أن نتسامح ، وأن نتصافح ! وأمام اللفتة البارعة تقول له: تكفي لحظة حنان في حياتنا العدائية ، تذكر شيئاً ، شيئاً نستطيع أن ننسج عليه مودتنا ، ثم محبتنا ، ثم سعادتنا تذكر عندما كنت طفلة ومرضت ، ألا تذكر ؟ فلنبحث عن شيء آخر يا أبي ، شيء أكون قد قلته لك ... كلمة ... أو إشارة تجمعنا اليوم وتقرب أحدنا إلى الآخر ! ويصرخ الأب في يأس مرير : آه يا ابنتي ، لا أكاد أجد شيئاً ، لقد كنت بلا ريب طفلة لطيفة ، ثم بنتاً جميلة ، ولكنني لم أنظر إليك ، لقد كرهتك منذ مولدك ، أما الآن فلشد ما أحب أن أحبك يا ابنتي !! ... أنظري أليس مثلنا كمثل كفيفين عمي منهما البصر وهما يتخبطان في الظلام مادين أيديهما ليلتقيا ؟ ! هيا يا ابنتي إلى البيت ، ولن نكون الأسرة الوحيدة على ظهر الأرض التي يعيش فيها أب وابنته جنباً إلى جنب بغير حب !

ترى هل ذهبت معه ؟ كلا ! إن الريشة المبدعة تريد أن تختم المسرحية الفذة ختاماً نفسياً لا نظير له ... إن الكاتب الفرنسي يريد أن يلقي على رجال الفن درساً ترسم لهم الطريق ؛ وها هو ذا ينطق الفتاة بأعمق وأروع ما يمكن أن تنطقها به الحياة :

« لن أذهب معك يا أبي لأنني أريد أن أحبك ... يجب أن نتحاب يا أبي وقد أحبك إذا سافرت إلى أي مكان بعيد ! إنني لا أستطيع أن أنطق أمامك بشعور الميل والانعطاف لأنك أمامي وحتى لو قلت لي أرني ما عندك فإني لم أتأثر به إذ أنك تقوله بذلك الصوت الذي طالما تقلصت منه أطرافي وجرح فؤادي ... لا حيلة لي فيه فهو ما زال يلاحقني ويجرحني ! حتى لو بكيت يا أبي فإن دموعك تسيل على وجهك ؛ وجهك الذي ظل عشرين عاماً وهو يتجهم لي !! ... وعلى ذلك فلا بد لبناء شيء بيننا من أن نهدم أولا كل شيء ، ولكي أحبك لا بد لي من أن أنساك ... ولكي نزداد قرباً منى ينبغي أن نزداد بعداً ... سافر إذن لأفكر فيك . وأكتب إليك ... ولكي تكون أبي الذي بعد عني والذي سيعود إلي ... أبي المجهول الذي لا يعرفني ، والذي سيجيء يوماً ما ... سوف ترى ، فإنه ما إن يتم البعد بيننا قليلا حتى يشب الحب بيننا قليلا ... وفي رسالة من رسائلنا ، نزداد جرأة على إبدائه ، والتعبير عنه ... ثم نتحاب حقاً يوماً ، وعندئذ تعود ... أريد ذلك يا أبي »؟ ويجيبها الأب وهو يجر قدميه مندفعاً إلى الخارج وفي صوته رائحة الدموع : نعم يا بنيتي ... وسأنتظر رسالتك الأولى !!

فتاة كما قلت لك ليست ككل الفتيات ، لأن القلم الذي قدمها إلى الناس قلم كاتب ليس ككل الكتاب ... واقرأ بعد ذلك للصاوي قصصاً أخرى بعضها له وبعضها لكتاب آخرين من الأدب الفرنسي ، ومهما بدا لك من الاعتراض هنا وهناك فلن تستطيع أن تنكر على الصاوي أنه إنسان ؛ إنسان يستشير قلبه في قصصه حين يكتب ، ويرجع إليه دائماً في قصص غيره حين يعرّب ! اقرأ مثلا في الفصل الأول قصة الفتاة التي تضحي بحبها الذاتي في سبيل الكرامة ، وفي الفصل الثاني قصة الفتاة التي تضحي بحبها الأبوي في سبيل الزوج ، وفي الفصل الرابع قصة الفتاة التي تضحي بحبها الخيالي في سبيل الأمومة ، وفي الفصل الأخير قصة الفتاة التي تضحي بحبها المثالي في سبيل الوطن ! واقرأ إذا شئت في الفصول الأخرى ألواناً من المرأة وألواناً من الحب ، وإذا كانت هذه الألوان لا تبلغ المستوى الرفيع في قصة الكاتب الفرنسي والقصص الأربع التي أشرت إليها في الفصل الأول والثاني والرابع والأخير ، فحسبك أن خفقات القلب فيها تسبق ومضات القلم !

بعض الرسائل من حقيبة البريد :

قلت وما زلت أقول لماذا يؤثر بعض القراء أن يظلوا مجهولين وهم أصدقاء ؟ ... هذه رسالة من « القضارف — سودان » تحمل إليّ من أديب لم يذكر اسمه تحية ملؤها التقدير الكريم لهذا القلم المتواضع الذي يسطر تعقيباته من أسبوع إلى أسبوع . إن هذه التحية الكريمة وأمثالها من التحايا الصادرة من أعماق الشعور والقلب والعاطفة ، لتؤكد لي أن رسالة الأدب بخير ما دام هناك خلق وعقل وذوق ووفاء ، أما أنا فلا أملك لهؤلاء القراء الأصدقاء جميعاً غير الشكر ، وإنه لشكر العاجز القصر عن بلوغ ما يريد !.

وهذه رسالة أخرى من « الإسكندرية » تحمل إليّ أيضاً ما خلته الرسالة السابقة من عاطر الثناء ، ولكن مرسلها الأديب الفاضل سعيد كامل غير راض عن الكلمة التي كتبتها منذ أسبوعين عن الريف ، لأن قضية الريف كانت تنتظر مني تصويراً أصدق وأوفى وأكثر إحاطة مما كتبت ! إن ردي على الأديب الفاضل بعد خالص شكري له هو أني ما أردت من وراء كلمتي عن الريف إلا أن أسجل حالة شعورية صادقة تركت أثرها في نفسي وحسي ، وأعتقد أنني قد نقلت حديث الشعور إلى الورق نقلا يمكن أن يحرك ذوي النفوس الشاعرة من أصحاب الأقلام وأصحاب السلطان

أما الرسالة الثالثة فمن تاجر فاضل « بمحلة مرحوم » يهوى الأدب ويحب « الرسالة » وهو السيد حنفي الشريف ... يأتي التاجر الأديب حلاً لمشكلة سببها له صديق الأستاذ راجي الراعي في فطرات نداء حين قال : « أتعس الناس رجل ذو ذاكرة قوية يصرف الساعات الطوال من نهاره وليله في المطالعة ولا يرى فيه قوة للتعبير عما يشعر به ، فتظل تلك الخلائق في أرحامه لا تقوى على الخروج وتتراكم مع الزمن حتى يصاب بالاستسقاء الذهني وفي مساء يوم من أيامه السود ينفجر رازحاً تحت أثقاله ويسلم الروح منتحراً أو مجنوناً ! إن النفس إذا غصت ساحتها بما فيها ولم تجد لها منفذاً أصيبت بالاختناق ، فلا تصرفوا أوقاتكم في القراءة إذا كنتم لا تستطيعون أن تكتبوا . القلم فرجة الروح فاكتبوا كلما قرأتم لترتفع أشجاركم بدورها بين تلك الأشجار التي تتفيأونها في غابات الفكر والإحساس . اتخذوا كوى أرواحكم بين الحين والحين لئلا يفسد هواؤها » ! ... إن مشكلة التاجر الأديب هي أنه مشغوف بالقراءة والاطلاع والاغتراف من منابع الأدب ، ولكنه لا يملك القدرة على التعبير عما يجيش بنفسه من شتى الخواطر والأحاسيس بما يرضي أديباً كبيراً كالأستاذ الراعي ، فهل يترك القراءة والاطلاع لأنه لا يستطيع أن يعبر ؟ ! هذا السؤال يوجهه إليّ صاحب الرسالة ، وأنا أترك الجواب للأستاذ راجي الراعي لأن الموضوع موضوعه وهو أحق مني بالجواب !

وتبقى بعد ذلك الرسالة الرابعة وهي من « السودان » أيضاً إنها رسالة عزيزة عليّ لأن ما فيها من عتاب وطني حار قد لفح مني الشعور والوجدان ! أود أن أقول لمرسلها الأديب الفاضل ج . البشير إني سأعود للموضوع الذي أثرته بكلماتك الملتهبة بصدق الوطنية والإيمان مكاناً خاصاً من « تعقيبات » العدد القادم ...

قصة « مالك الحزين » في مجلة الثقافة :

قصة مالك الحزين قصة معروفة لكل من قرأ كتاب « كليلة ودمنة » ، وهي قصة قصها بيدبا الفيلسوف على دبشليم الملك حين طلب إليه أن يضرب له مثلا للرجل يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه — هذا المثل الذي ضربه الفيلسوف لهذا الصنف من الناس مستمداً معناه من شخصية مالك الحزين ، هذا المثل تستطيع أن تعثر عليه في العدد الصادر منذ أسبوعين من الثقافة في صورة دكتور من الدكاترة الشبان ، بلذ له دائماً أن يحمل عصا الأستاذية في النقد الأدبي ! قال الدكتور وهو يعرض لأحد الكتب بالنقد والتوجيه :

« دعوت في مقال سابق إلى أن لا يكتب المؤلف كتاباً إلا وقد أصبحت أفكاره تجارب يعيشها ويحياها ، حتى يكون الكتاب ذا قيمة حقيقية وحتى يمكن أن ينتفع به الناس ؛ فإن الكتاب إن لم يصدر عن منطق المؤلف وروحه ، ولم يصبح جزءاً لا يتجزأ من ذهنه ونفسه ، يكون شيئاً تافهاً ، ولا يكون خليقاً بالنظر والدرس . وقد يظن بعض المؤلفين في هذا عنفاً وقسوة في الحكم على الكتب ، ولكنهم إذا نظروا في الساعات التي اقتطعوها من القارىء في غير جدوى ، إلا أن يأتوا بأخبار من هنا وهناك ، حتى ليغدو الكتاب كأنه سوق غير منظمة يختلط فيها الزائف بغير الزائف والهوش بغير الهوش ، إذا نظروا في ذلك اعترفوا بصحة ما نذهب إليه » .

كلمات الدكتور الناقد حق في حق ، ولكن هل يتفضل بتطبيقها على كتبه قبل أن يطبقها على كتب الناس ؟ أم أنه يريد أن يعيد لنا قصة مالك الحزين ، ذلك الذي قال عنه بيدبا الفيلسوف أنه يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه ؟ ! ...

أنور المعداوي